الاستشراق في السيرة النبوية*
(عبدالله النعيم)

قراءة محمد خير فرج

يرى الكاتب أن تشكيل العقل الغربي إزاء الإسلام جاء نتيجة للدراسات الاستشراقية؛ بل إنها ساهمت في تشكيل عقلية الصفوة في العالم الإسلامي، وبإشاراته للون الإسلامي دون الوقوف على إطار اللون العربي، يعتبر متجاوزاً للأسلوب التقليدي في حصر مواطن الضعف بالشخصية الإسلامية في الشق العربي منها. ولأن (وات، وبروكلمان، وفلهاوزن)، كانوا أعلام الدراسات الأكاديمية في جامعات المسلمين؛ نشأ أبناؤها وفق نسقهم المعرفي، فاختارهم محوراً لموضوعه، خاصة وأنهم فرَّغوا الإسلام من ذاتيته الحضارية، وجرَّدوا محمد بن عبد الله ﷺ من صفة النبوة.

تناول الباحث في دراسة السيرة، كتابَي: «محمد في مكة»، و«محمد في المدينة»، لِوات البريطاني، وملخصهما: «محمد نبياً ورجل دولة»، ويصنَّف من المقدِّمين رؤية متكاملة للسيرة النبوية. وكذلك كتاب: «تاريخ الشعوب الإسلامية» لبروكلمان الألماني الذي يتميز بعرضه المركَّز للسيرة، ولتكامل الرؤية تناول أيضاً كتاب «تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية»، لِفلهاوزن الألماني أيضاً، ولأنه من المهتمين بتأريخ الأمويين كثيراً ما يأخذان معلوماتهما منه. وعلى الرغم من تناول هؤلاء المستشرقين كمفكرين، لكن أعمالهم عكست أفكار ومناهج المدرستين البريطانية والألمانية

(*) عبد الله محمد الأمين النعيم: الاستشراق في السيرة النبوية، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1997م، 344 ص.

في نطاق الاستشراق.

اعتبر الباحث أن الدراسات السابقة على مُؤلَّفه جاءت قاصرة وأنها احتوت على عناوين عريضة. فجاءت دراسة عماد الدين خليل لآراء وات محصورة بالمنهج دون التحليل والمقارنة، وبالمقابل كانت قاصرة على الفترة المكية «محمد في مكة»، علماً أن التشريع كان بالمدينة وهي المساحة الأهم. في حين أن بحث خليل هو مقدمة لكتابه: دراسة في السيرة، وكذلك جعفر شيخ إدريس حيث حصر بحثه في مجال العقيدة «نبوة محمد في منهج وات». وأيضاً دراسة عبد الكريم الباز عن افتراءات حِتِّي وبروكلمان على التأريخ الإسلامي. وجاءت تعليقات عمر فروخ بهامش تاريخ الشعوب الإسلامية غير موثقة وكذلك تعليقات عبد الهادي أبي ريدة على آراء فلهاوزن. ولذلك اعتمد الكاتب أسلوب المنهج التحليلي والمقارن دون ترجيح أي الرؤيتين أصدق لأنه يتحدث عن منهجية متناقضة في الوقت الذي استخدم فيه أسلوب المحدثين بالنقد.

اعتمد المؤلِّف على القرآن الكريم بالدرجة الأولى في قراءة السيرة، وأشار للمصادر الأخرى التي أفادته بالبحث، وبدت شخصية وات واضحة في كل محاور الكتاب، لأن دراسته للسيرة تقع في ثلاثة مؤلفات. ولاختياره أسلوب الموضوعية فقد أكد أنه يتناول فقط الآراء الخاطئة عند المستشرقين محور الدراسة، مبيناً أن هناك آراء إيجابية يعسر تناولها لأنها تحتاج لمجلدات، خاصة وأن إثبات الحقائق لا يتطلب منا تمجيد المستشرق، فواجب كل باحث عن الحقيقة: الإنصاف. وعرض الكاتب لسيرة (وات، وبروكلمان، وفلهاوزن) الذاتية، والعلمية.

رأى أن مفهوم الاستشراق خاضع للمدلول المعنوي لا الجهوي الجغرافي، وبالتالي من الصعوبة بمكان وضع حدٍّ فاصل بين الاستشراق والتبشير والاستعمار، وخرج عن الموضوعية عندما اعتبر «أن المثقف رهين بالثقافة التي ينشأ فيها»، وبذلك يكون قد حكم مسبقاً بالخطأ على آراء المستشرقين. وأعاد بداية الاستشراق إلى أيام الدولة الإسلامية في الأندلس أو

إلى أيام الصليبيين. لكنه حدَّد الاستشراق اللاهوتي بعام 1312م عندما قرَّر مجمع ڤيينا الكنسي إنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية. إذا كانت الرؤى الاستشراقية غير فاعلة في مجرى التفكير الغربي في بداياتها لأنها قامت على جهود فردية، فقد تركت آثاراً واسعة بعد الحروب الصليبية البداية الحقيقية للاستشراق لأنها تبلورت كتيار فكري عام. وبسبب ذيول الحرب سرى المنهج العدائي لعمق البنية الذهنية عند المحتكين بالمسلمين من الغرب، مما جرَّد المستشرقين من الموضوعية والأمانة العلمية، خاصة وأنهم كانوا متأثرين بالتحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ببلادهم، مما يعني بروز عقلية الغرب تجاه المشرق دون الوقوف بتجرد عند الموضوع المدروس. ولكثرة أهداف الاستشراق وتداخلها فقد تناول: الديني، والاستعماري والسياسي، والاقتصادي. أما الهدف العلمي الموضوعي الذي تحلَّت به دراسات: «توماس أرنولد، وغوستاف لوبون وآخرين» فقد اعتبرها ثانوية لضآلتها مقارنة مع ستين ألف كتاب تُعنى بالشرق العربي وحده من 1811 حتى 1950م، في حين أن الكنيسة وضعت كتب المتعاطفين مع الإسلام في قائمة المحرمات. وتوقف عند وسائل الاستشراق المهمة مثل: اكتساب عضوية مجامع اللغة العربية، إصدار المجلات المتخصصة، إصدار الموسوعات الإسلامية بعدة لغات، إيجاد كوادر محلية تتبنَّى طروحاتهم؛ أي تطبيع الفكر الاستشراقي أو شرقنة الشرق.

تبلورت رؤية الاستشراق تجاه النبي ودعوته منذ احتكاك المسلمين بالمسيحيين في الأندلس، وتطوَّرت الفكرة بالإطار الشكلي فأخذت طابعاً سلبياً صَوَّر الإسلام على أنه العدو الأكبر، ثم وصف النبي محمداً ﷺ بالشهوانية وأمير الظلمات رغم محاولة بطرس الراهب تقديم معلومات أكثر صدقاً بقيت معلومات الوهم عالقة بمناهجهم.

وهو يرى أن حيادية ونزاهة وات وبروكلمان تَتَّفِق مع الرؤية الاستشراقية على أن الإسلام تركيب ملفَّق من المسيحية واليهودية والمجوسية، فالتوصل بالمنهج العلمي لمعلومة صحيحة تعني أنها مقتبسة من ديانة الآخر. أما ارتباط المستشرق بالمؤثرات الضاغطة على وعيه فتجعله سبَّاباً: إن نبي الإسلام؛

ماكر، خليع، رئيس عصابة وهكذا. لكن المشكلة تكمن في علماء المسلمين الذين تواجدوا في بلادهم منذ القرن الثامن الميلاد وحتى نهاية الخلافة العثمانية، ولم يتابعوا تلك الصورة العلمية في مناهج الأوروبيين خاصة بعدما تمرَّد مفكرو أوروبا على الكنيسة وابتدعوا مناهج مادية وعلمانية للعلوم، ومما لا شك فيه أن ثمة مفارقة مهمة بين موضوعية هذه المناهج المبتكرة ضمن مناخها الخاص وزمانها المحدَّد، وعدم موضوعيتها في إسقاطها على فهم الإسلام بمناخه الخاص وزمانه ومكانه المختلف.

واللافت في الدراسة تحديد أو إبراز المعالم الأساسية لمنهج «وات، وبروكلمان وفلهاوزن» الخاضعة للأسس المادية والعلمانية لمناهج الاستشراق، وهي مغايرة لروح السيرة ووقائعها، في حين أنها بالمنهجية الإسلامية ليست مسألة تاريخية صرفة بل مرتبطة بوحي السماء، فلا يمكن إخضاع ما صحَّ منها للمنهج الديكارتي (الشك). وقد اتبعوا في دراستهم لوقائع السيرة النبوية مناهج عديدة أهمها:

1 ـ منهج الأثر والتأثير: اتبعه غالبية المستشرقين، وبه تم إفراغ الإسلام من ذاتيته الحضارية، فأحالوه لمصادر خارجية: النصرانية واليهودية والبابلية والمجوسية وحتى الآرامية والفارسية عند بروكلمان.

2 ـ المنهج العلماني: الذي يستبعد فيه وقوع ظواهر دينية لا تخضع لقوانين الأجسام المادية المعروفة.

3 ـ المنهج المادي: ظهر المنهج المادي بعد نجاح الثورة الشيوعية 1917، في روسيا، حيث يجعل للعامل الاقتصادي أهمية قصوى في تفسير الواقعة التاريخية.

4 ـ المنهج الإسقاطي: وهو إسقاط الواقع المعاصر المعاش على الوقائع التاريخية، فيفسرونها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة، وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم.

5 ـ منهج النفي والافتراض واعتماد الضعيف الشاذ: لإثارة الشك أخذوا بالخبر الضعيف أحياناً وحكموا بموجبه، وقدَّموه على المشهور حتى ولو

كان الشاذ متأخراً ومستغرباً عند النقدة.

6 ـ منهج البناء والهدم، حيث الإطراء والمديح ثم الطعن.

7 ـ المنهج الفيلولوجي: وهو التركيز على الناحية اللغوية في دراسة الوقائع التاريخية، وقد نشأ نتيجة لتخصص بعض المستشرقين في العديد من اللغات القديمة، مثل بروكلمان.

ورأى أن هذه المناهج تتوافق مع قراءة الخبر أو الواقعة التاريخية دون السيرة النبوية لأن فهمها يقوم على ثلاثة شروط:

1 ـ احترام المصدر الغيبي لرسالة النبي ﷺ؛ الوحي.

2 ـ اعتماد موقف موضوعي بدون حكم مسبق.

3 ـ الإحاطة بأدوات البحث التاريخي بدءًا باللغة وجمع المادة وانتهاءً بطرائق المقارنة والموازنة والنقد والتركيب. ويعتبر أنهم متمكنون بهذا الشرط.

وهنا خالف منهجه المبني على إيراد المسافات المنهجية لكلا الطرفين دون الحكم على صدقية النتيجة لأنه يتحدث عن النقيض، لكنه يقول: فإنهم في النهاية لم يستطيعوا أن يقدموا أعمالاً علمية لواقعة السيرة ولم يقتربوا من حالة فهمها لعدم توفر الشرطين الأول والثاني في منهجيتهم ولأنهم منطلقون من خلفيات ثقافية مسبقة هي بمثابة المسلمات. إذن حكم على منهجيتهم بالخطأ.

والمهم أن الباحث أثار إشكالية منهجية عند (وات)، كونه وفق المنهجية العلمية لا شيء مستحيل على النقد حتى القرآن، وبالمقابل: يناقض نفسه بقوله عند الحديث عن غولدزيهر: إن مخالفته ليست بالأمر السهل. وتساءل: أي منهجية هذه التي ترد رواية المعاصرين للحدث والمدركين له ـ أمثال ابن هشام والطبري.. ـ من كافة جوانبه وأبعاده، في حين تقبل رواية من يكتب عن الحدث بعد مضي ما يزيد على الثلاثة عشر قرناً، وفي ضوء بيئة مغايرة لبيئة الحدث، وعلى ضوء رؤية مغايرة لرؤية الفاعل التاريخي وثقافته.

ويبدو أن الإشكالية نفسها متجسدة في الرؤية الذاتية ضمن المنهجية

الإسلامية، فالمفكر الإسلامي المعاصر المشهور: آراؤه وأفكاره واجتهاداته مخالفتها ليست بالأمر السهل، أما نقدنا لاجتهادات الأئمة فميسور على قاعدة: أن آراءهم ليست ديناً، وكأن آراء المعاصرين هي الدين.

لاحظ الباحث بعد عرضه للمنهجية التي اتبعها وات وبروكلمان وفلهاوزن في دراسة السيرة النبوية، أن الخلل يعتريها لأنها استمدت مقوماتها من المناهج الغربية المرتكزة على أسس مغايرة لروح السيرة ووقائعها، وأكد أن استخدام هذه المناهج لا يتوافق مع وقائع السيرة التي تأبى بعض أجزائها على الخضوع لمقولات العقل. وهذه إشكالية مختلف عليها بين الأشاعرة والمعتزلة والماتريدية، في إطار أوسع من السيرة، لتشمل إدراك الحقيقة بالمطلق هل هي على قاعدة الشرع أم العقل؟

وإزاء رؤية وات وبروكلمان وفلهاوزن للسيرة النبوية في العهد المكي ذي اللون العقدي، أكد أنه مهما بلغت منهجيتهم من حياديتها ونزاهتها، إن لم تضع في حسبانها نبوة محمد ﷺ شرطاً أساسياً لدراسة هذه الفترة أو على الأقل احترام المصدر الغيبي لنبوته ﷺ، فإن حصيلة الدراسة ستأتي مغايرة لأحداث السيرة ووقائعها ومرتطمة ببداهتها ومسلماتها، كما حدث معهم عندما اعتبروا الرسول من مثقفي عصره من أجل هدم مسلمات وقناعات عقدية، فنفي أميته يتكامل مع نظرية التخيل الخلاق واللاوعي الجماعي لتجريده من صفة النبوة بحجة النباهة الذهنية.

توصل الباحث خلال تحليل رؤاهم للسيرة في العهد المكي أنها جردت العهد من أهم مميزاته، وهو الدعوة إلى وحدانية الله تعالى. وجردت النبي من وظيفته الأساسية المتمثلة في نبوته، وشككت هذه الرؤية في حياة النبي ﷺ الأولى، وهي المدى الزمني الممتد بين ولادته عليه السلام وزواجه من خديجة رضي الله عنها. ورأى أن وقائع السيرة في هذا العهد لم تنج من الخضوع قسراً للمنهجية الاستشراقية. ولفت الانتباه إلى أنه ليس سوء التفسير وحده هو ما جابه الوقائع، بل إن بعض الوقائع جرى استبعادها ونفيها، وعلى أسوأ الفروض التشكيك فيها.

وتساءل: ماذا يبقى للعهد المكي من قيمة إذا جرَّدناه من أسسه ودعائمه، حيث اعتبروا: أن النبي ليس نبياً، إذ إن النبوة من إبداعه، لأنه كان من مثقفي عصره في نظر وات، وأن الوحي انبثق من لا شعوره، أو هو مجرد أوهام وتخيلات، وأن الرسول لم يكن يعرف أبعاد دعوته، وأن الوحدانية التجريدية جاءت متأخرة بعد فشل المساومات مع المكيين، وأن الدعوة الإسلامية دعوة إقليمية خاصة بالعرب وليست عالمية، وأن ما تعرض له المسلمون من اضطهاد كما صورته المصادر مبالغ فيه، وأن انشقاقاً قد حدث داخل الحركة الإسلامية تسبب في الهجرة إلى الحبشة وأن الإحباط قد أصاب الرسول بعد عودته من الطائف، وأن الرسول لم يتعرض للاغتيال حينما أراد الهجرة إلى المدينة.

وجد المؤلف أن وات وزملاءه في دراستهم لسياسة النبي وإصلاحاته أثناء إقامته في المدينة، قد عملوا على الفصل بين وظيفتي: القيادة الدينية والقيادة السياسية، أي أن قيادة النبي ﷺ الدينية لا تعني بالضرورة أن يكون هو القائد السياسي، كما رأى فلهاوزن مع أقرانه: أن محمداً كان في مكة ثائراً على قومه، مخالفاً لما هم عليه. أما في المدينة فقد بلغ ما كان يرمي إليه، وقد أحدث هذا تغييراً كبيراً لا مجرد فرق ظاهري، وذلك لأن المعارضة دائماً تتغير عندما تصل إلى الرئاسة. وإن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيراً عن الفكرة التي عليها، لأن تقديرها للأشياء أول الأمر يكون بحسب الإمكان لا بحسب الواقع.

انتهى الدارس لآرائهم في العهد المدني إلى أنهم عملوا على حصر شخصية النبي ﷺ في الإطار الزماني والمكاني الذي وجد فيه، كما يرى بروكلمان مع إخوانه في مسألة تحريم الخمر أنها كانت عقب غزوة بني النضير بهدف تقييد الشعراء الذين كانت مجالسهم تفسد روح النظام، بينما وات يرى التحريم لاعتبارات سياسية، حيث كان يستورد من سوريا والعراق، ولعدم إفادة العدو حُرِّم. وهنا يُبرز المؤلف رؤيته المقاصدية للتحريم: بأن الشريعة جاءت بالتحريم لترفع مستوى الجماعة وتوجهها نحو الكمال. فمن مقاصد الشريعة: حماية العقل المسلم، ونقول: بل العقل البشري، لينسجم

المقال مع مقام الشريعة العالمي، والذي أكده الكاتب برده على تحليلهم للسيرة المدنية وكأن النبي في تشريعاته قد جاء لإصلاح النظام في المدينة، دون استيعاب أن النبي ﷺ صاحب رسالة عالمية، وبالتالي فإصلاحاته والتشريعات التي جاء بها لا تتخذ طابع المحلية والزمانية بحيث تنتهي بوفاته، وإنما لها ديمومتها حتى قيام الساعة. وإلا لتم إباحة الخمر عقب فتح سوريا والعراق والتزام الشعراء بالأخلاق الإسلامية.

اللافت أنه يساوي بين المستشرقين والمنافقين في معارضتهم للرسول بالمدينة، إذ إن توجهات الفريقين تلتقي في رؤيتها وتعاملها مع النبي ﷺ ودعوته، هذه الرؤية المؤسسة على العلمانية، بحيث جاء التعامل معه ﷺ كسياسي لا كنبي صاحب دعوة إلٰهية. عدم فهم البعد الديني في قيادة النبي للأمة أدى بهما للانحراف الفكري وسوء الفهم، فنتج اضطراب بالحقائق. ولمس أن المستشرقين حين يكتبون عن المنافقين يلجأون للتزوير والتبرير والتشكيك في مصداقية المصادر الإسلامية هذا في الوقت الذي لا يردّون فيه مقولات بعضهم بعضاً، وذلك: ليستمر الانحراف المنهجي الاستشراقي.

وتوقف عند عدد من القضايا التي ناقشها وات وإخوانه في إشكالية النفاق والمنافقين، وقرر أن دراساتهم:

1 ـ تشكك في مصداقية الوحدة الإسلامية أيام النبي ﷺ.
2 ـ تبالغ في وصف الطابع الإسلامي للمعارضة النفاقية.
3 ـ تحاول دراسة وات التأكيد على مشاركة المنافقين في غزوات النبي ﷺ حتى لو نفت المصادر الإسلامية هذه الوقائع.
4 ـ توضح دراسة وات إخلاص الزعامة النفاقية للإسلام وسبقها إلى الدخول فيه.
5 ـ عمل فلهاوزن على إثبات الإرهاب داخل المدينة الذي بدأ بإثارة مشكلة المنافقين كما يرى.
6 ـ أضاف بروكلمان ووات دعاوى مغرضة على حادثة الإفك.
7 ـ أكد وات عجز النبي عن اتخاذ إجراءات تأديبية ضد قيادة النفاق في

المدينة للتدليل على ضعف مكانته وأنها تمثل زعامة رديفة في خضم زعامات جَمَّة.

وتبدَّى له أن محور دراساتهم في قضية المنافقين تقوم على:

1 ـ منهج البحث العلمي العلماني.

2 ـ إهمال البعد الديني.

3 ـ التشكيك في الوقائع الثابتة.

4 ـ الافتراض والاستنتاج غير المبني على بَيِّنة.

5 ـ عدم استيعاب البعد المقاصدي في الخطاب النبوي، مثل: عدم قتل ابن أبي أو معاقبته إثر تبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها، كان تأليفاً لقومه وعدم تنفيرهم من الإسلام.

6 ـ حصر المعارضة النفاقية في صراع سياسي حول السلطة. فكانت النتيجة التي توصل إليها المستشرقون: تبرئة المعارضة النفاقية من كافة التهم التي وجهتها لها المصادر الإسلامية.

قبل معالجة آراء محور الدراسة يحكم على ثمرة بحثهم بالخطأ مسبقاً، هذا في الوقت الذي أخذ عليهم اصطحابهم لموروثات مجتمعاتهم الرافضة لفكرة الدين. فيعتبر أن الدراسات الاستشراقية لا سيما في موضوع مقارنة الأديان والعلاقات بين أهل الأديان يحتل الإسلام ومعتنقوه الجانب الأضعف في هذه المقارنة، ذلك لأن الفكرة المبدئية والمترسخة في العقلية الاستشراقية هي أن الإسلام اقتبس أفكاره من اليهودية والنصرانية. وعلى ضوء هذه الفكرة المبدئية تجاه الإسلام تخرج البحوث الاستشراقية وهي ناقصة لا تحمل عناصر اكتمالها منذ البداية. ولأن الدين لا قيمة له في المنهج الغربي، فقد جاءت النظرة الاستشراقية تجاه النبي ودعوته مجردة من عنصر الإيمان وقائمة على التشكيك في دعوته ﷺ ذاتها؛ فكرة متكررة في كل مفاصل البحث.

يحاول وات وفلهاوزن وبروكلمان إثبات أخذ الإسلام لأفكاره وقيمه عن اليهودية والنصرانية، وهم يتتبعون هذه الأفكار والقيم وكأنهم يتتبعون سارقاً ليضبطوه متلبساً بالجريمة. إنهم وهم يكتبون عن تشكيل العلاقة الإسلامية

اليهودية يدَّعون أن النبي بذل مجهودات جبارة لأجل تكييف دينه مع الديانة اليهودية وذلك لأجل كسب اليهود لجانبه. والبارز أنهم يتشككون في المعاهدات التي عقدها النبي مع اليهود في المدينة، حتى إذا ما نشب الصراع العسكري بين المسلمين واليهود نراهم يَدَّعوه أن النوايا كانت مبيَّتة لإخراج اليهود من المدينة، لأن الأسباب ـ باعتقادهم ـ التي أدت لإخراجهم كانت أسباباً واهية لا تتناسب مع الجرم الذي اقترفه اليهود. لذلك يصر المستشرقون على التشكيك في تاريخ وثيقة المدينة أنها كانت متأخرة ليُحلِّلوا اليهود من نكث العهد، أي: التشكيك في الروايات الإسلامية الصحيحة والقفز على الحقائق الموجودة، والتحلل من نبوته ﷺ، فجاءت استنتاجاتهم غريبةً عن السيرة النبوية، ولذلك لم يكن غريباً قول وات إن غزو محمد لخيبر كان لأسباب مادية.

والمهم ربط المؤلف بين تعاطف وات وإخوانه مع يهود المدينة ودعوته لإقامة إمبراطورية عربية يؤلف اليهود جزءًا منها ويصبح الإسلام طائفة يهودية، وبين تعاطف الرؤية الغربية المعاصرة للصهيونية اليهودية في واقع الصراع العربي والكيان الصهيوني. ونسي وات أن الإسلام بشموليته تجاوز خطاب الإنسان المحدود بالزمان والمكان، بينما اليهودية جاءت محدودة بزمان، وقاصرة على شعب هو الشعب اليهودي ثم لم تعد تلبي حاجاته، وحين جاء الإسلام ليكون للناس كافة ـ والذي بشر بقدومه اليهود في المدينة ـ عجزت العقلية اليهودية عن استيعاب مضامين الخطاب الإسلامي لأسباب عنصرية ودينية غذتها المفاهيم التوراتية المحرفة، بل والتلمودية.

تحدث وات عن الموقف الإسلامي من المسيحية، فذكر أن موقف الإسلام منها بدأ طيباً، ولم يحاول أن ينكر عقيدة المسيح، لكن الموقف الإسلامي بدأ في التطور حتى تحول في النهاية إلى موقف عدائي، وذلك نتيجة للاحتكاكات السياسية والعسكرية بالقبائل العربية المسيحية، وبالبيزنطيين في الشمال. وعلى أساس هذا الموقف الإسلامي الطيب تجاه المسيحية فإن وات يرى: أن كثيراً من الآيات التي ترجع إلى الفترة المدنية الأولى والتي تنتقد اليهود والمسيحيين كانت في الأصل موجهة ضد اليهود. ولأنه لا يتحلى

بذهنية التوقيف تجاه خطاب الوحي فقد رأى إمكانية حذف الإشارة إلى المسيحيين بحذف بعض الكلمات، واستنتج وجود شك قوي أن تكون هذه الآيات قد نُقِّحت فيما بعد حتى يمكن تطبيقها على اليهود والمسيحيين؛ إنه تجاهل حقيقي أو عدم إلمام واضح في أسس التعاطي مع قراءة كلام الله سبحانه من جهة، وعدم الملكة بأسلوب عِلْمَي الرواية والدراية عند المسلمين.

ويُقلِّل بروكلمان من أهمية أثر الدعوة الإسلامية في وسط القبائل العربية المسيحية على أساس الإعجاب والاقتناع بالدين الجديد، ليرجِّح السلطان السياسي المستفيد من الحمية القبلية في بحر القبائل المتنوعة. إذن احتمال قوة الأثر الإسلامي في القبائل العربية المسيحية بالمنحى الديني غير وارد، وإن كان وات يرى إمكانية وجود نزعة عند العرب المسيحيين ـ الذين أصبحوا حلفاء ـ لاعتناق الإسلام، لكن على أساس التخلص من النفوذ البيزنطي.

اتضح للباحث من خلال سرد وقائع الغزوات تحديد رؤية المستشرقين تجاه العلاقات الإسلامية بالقبائل العربية الوثنية أنها مبنية على أن تحركات النبي ﷺ في الجزيرة العربية لنشر الدعوة قد تمت دراستها على أساس أنها موضوع صراع بين النبي وقريش ولذلك رأى وات أن الدافع الأساس للتحركات الإسلامية ليس مكانة مكة الدينية لوجود الكعبة المكرمة بل إن السبب هو حاجة النبي إلى كفاءة المكيين الإدارية لتحقيق الأهداف المترائية له فوق الأفق؛ أي الزعامة السياسية، وتم حصر انتشار الإسلام في منطقة مكة والمدينة بحيث تم استبعاد إسلام القبائل العربية، وهذا ما هدفت إليه دراسة المستشرقين وتجلت باعتبار الإسلام ديانة محلية أو إقليمية خاصة بالعرب. واهتم وات وإخوانه بالتدليل على إمكانية تنازل النبي ﷺ عن بعض الثوابت الدينية إذا تمت مساومته عليها، كظن وفد ثقيف بعدم غروب الشمس عندما أتاهم بلال بفطرهم وقال بعدما سألوه: ما غابت الشمس، فقال: ما جئتكم حتى أفطر رسول الله. فلا دليل في الرواية على تخفيف ساعات الصيام لثقيف، خاصة وأنه من سنن الصيام التعجيل بالفطر، روى البخاري في كتاب الصوم، قال رسول الله: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»، وما يمكن قوله: إن استنتاجاتهم أو تحليلاتهم تناقضت مع حقيقة الشريعة وأيضاً مع مقاصدهم في دراسة السيرة،

لأنهم لم يحيطوا بالمصادر الأساسية لوقائع السيرة، وإن امتلكوا معرفة بعضها، تراهم غير ملمين بمنهجية العلوم الإسلامية ودلالاتها التأصيلية، كما أن الباحثين المسلمين عموماً غير محيطين بالرؤية العلمية في قراءة النص، وبالتالي نرفض آراءهم مسبقاً، كما لا يقبلون رؤانا حُكماً.

لخص الباحث دراسته بجملة نقاط أهمها:

1 ـ عدم حيادية المستشرق للمؤثرات الخارجية، ونقول عدم الموضوعية لأنه غير ممتلك لآليات البحث الإسلامي، فتناقضت رؤاهم مع وقائع السيرة.

2 ـ تجاوزهم لوقائع حياة النبوة من الميلاد حتى الزواج من خديجة يفقدنا الأرضية التي تشكلت عليها مقدمات النبوة وإرهاصاتها، ولما لها من دلالات في تشكيل العلاقة بين المسلمين والمسيحيين إثر علاقته ببحيرا الراهب وأيضاً نسطورا الراهب.

3 ـ عزوهم الوحي للنشاط الذهني والتخيل الخلاق، أو للوهم، فكان القرآن من تأليف محمد، فاستبعدوا أميته، وألحقوه بمثقفي عصره.

4 ـ إفراغ الإسلام من ذاتيته الحضارية وإحالته للمصادر الخارجية المسيحية واليهودية بل حتى البابلية والمجوسية والمانوية.

5 ـ ركزوا على الجانب السياسي في دعوة النبي وإصلاحاته.

6 ـ تعاطفوا مع المعارضة وأن الدولة النبوية متعصبة، ولذلك لا تقيم وزناً للمقدس، أي أنها قائمة على الغدر، فلزم من المعارضة الحذر.

7 ـ إخضاع الغزوات للمنطق المادي وليس الدعوي. فلم تكن ردة بل عدم ولاء سياسي لأن القبائل لم تعتنق الإسلام كما يرى وات.

وفي الختام توقف عند جملة توصيات، نذكر منها:

1 ـ الطلب من الباحثين الاهتمام بالمدرسة الاستشراقية الفرنسية، لأن دراسته اقتصرت على المدرستين البريطانية والألمانية.

2 ـ تنقية المصادر التاريخية من الإسرائيليات والتوفيق بين الروايات المتناقضة، لاعتماد المستشرقين على الشاذ منها.

3 ـ إصدار موسوعة عن السيرة النبوية الصحيحة.

4 ـ إصدار دائرة معارف إسلامية بأقلام أبناء البيئة العربية والإسلامية، وإلا استمر الخلل في الدراسات العربية.

ويبدو أن المشكلة متجذرة في الشخصية الإسلامية كونها غير مدركة للمعالم الأساسية التي تشكل منها العقل الغربي، وقبل ذلك أين جهد الباحثين المسلمين في إخضاع الروايات التاريخية لعلم الجرح والتعديل، وهنا المشكلة متراكمة ومضاعفة، إهمال في ترميم آلية الخبر التاريخي، وضعف في عدم استيعاب منهجية البحث العلمي الغربي. وبالمقابل: إن الغربيين ومنهم كل المستشرقين مدعوون للتعرف أولاً على منهجية البحث الإسلامية قبل قراءة النصوص الإسلامية قولاً أو عملاً ـ تطبيقاً ـ. وكذلك أهل الخبرة عربياً وإسلامياً.